بسم الله الرحمن الرحيم

١٩ - سورة مريم

سميت بها لاشتمالها على نبئها الخارق . وقال المهايميّ : لأن قصتها تشير إلى أن من اعتزل من أهله لعبادة الله ، وطلب بها إشراق نوره ، يرجى أن يكشف له عن صفات الحق وعن عالم الملكوت . وتظهر له الكرامات العجيبة . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . وهى مكية النزول . واستثنى بعضهم منها آية السجدة[١] وآية[٢] (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) .

وقد روى محمد بن إسحق[٣] ، فى السيرة ، من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة ، أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشيّ وأصحابه . وآياتها ثمان وتسعون .

---

(١) [١٩ / مريم / ٥٨] . (٢) [١٩ / مريم / ٧١] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣٥٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (كٓهيعٓصٓ)

[٢] (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ)

[٣] (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا)

« كٓهيعٓصٓ » سلف فى أول سورة البقرة الكلام على هذه الأحرف ، المبتدأ بها . وأولى الأقوال بالصواب أنها أسماء للسورة المبتدأ بها . وكونها خبر مبتدأ محذوف . أى : هذا (كٓهيعٓصٓ) أى مسمى به ، وقوله تعالى « ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ » مبتدأ خبره محذوف . أى فيما يتلى عليك . أو خبر محذوف . أى هذا المتلوّ ذكرها . و (زكريا) والد يحيى عليهما السلام . بدل من (عبده) أو عطف بيان له . قال المهايمىّ : أى ذكر الله لنا ما رحم به زكريا عليه السلام بمقتضى كمال ربوبيته . فأعطاه ولداً كاملاً فى باب النبوة . فبشره بنفسه تارة وبملائكته أخرى . وتولى تسميته ولم يشرك فيها من تقدمه . وذكرها لنا كبير هبة لنا ، فى تعريف مقام النبوة ، وقدرة الله وعنايته بصفوته. « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا » ظرف لـ (رحمة) أو بدل اشتمال من (زكريا) والنداء فى الأصل رفع الصوت وظهوره . والمراد به الدعاء . وقد راعى أدب الدعاء ، وهو إخفاؤه ، لكونه أبعد عن الرياء ، وأدخل فى الإخلاص . ثم فسر الدعاء بقوله :

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا)

« قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى » أى ضعف . قال الزمخشرىّ : وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن . وبه قوامه ، وهو أصل بنائه . فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته . ولأنه أشد مافيه وأصلبه . فإذا وهن كان ماوراءه أوهن . ووحّده ، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية ، المنبئة عن شمول الوهن بكل فرد من أفراده . وقرئ (وَهِنَ) بكسر الهاء وضمها « وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا » قال الزمخشرىّ : شبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وإنارته ، وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ ـ باشتعال النار . ثم أخرجه مخرج الاستعارة . ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس . وأخرج الشيب مميزاً ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا . فمن ثم فصحت هـذه الجملة وشهد لها بالبلاغة . وظاهره أن فيه استعارتين مبنيتين على تشبيهين : أولاهما تصريحية تبعية فى (اشتعل) بتشبيه انتشار المبيضّ فى المسودّ باشتعال النار ، كما قال ابن دريد فى (مقصورته) .

إمَّا تَرَىْ رَأْسِىَ حَاكَى لَوْنُهُ ... طرّةَ صبحٍ تَحْتَ أذيَالِ الدجا

واشتعل المبيضُّ فى مسودِّهِ ... مثلَ اشتعالِ النَّارِ فى جَزْلِ الغَضَا

والثانية مكنية . بتشبيه الشيب ، فى بياضه وإنارته ، باللهب . وهذا بناء على أن المكنية قد تنفك عن التخييلية ، وعليه المحققون من أهل المعانى . وقيل : إن الاستعارة هنا تمثيلية . فشبه حال الشيب بحال النار ، فى بياضه وانتشاره « وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا » أى ولم أكن بدعائى إياك خائباً فى وقت لم أعوّد منـك إلا الإجابة فى الدعاء ، ولم تردّنى قط . وهـذا توسل منه إلى الله تعالى بما سلف له معه من الاستجابة ، إثر تمهيد ما يستدعى

الرحمة ويستجلب الرأفة ، من كبر السن وضعف الحال . فإنه تعالى بعد ما عوّد عبده بالإجابة دهراً طويلًا ، لا يكاد يخيبه أبداً . لاسيما عند اضطراره وشدة افتقاره .

تنبيه :

استفيد من هذه الآيات آداب الدعاء وما يستحبّ فيه . فمنها الإسرار بالدعاء ، لقوله (خَفِيًّا) ومنها استحباب الخضوع فى الدعاء وإظهار الذل والمسكنة والضعف لقوله (وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) ومنها التوسل إلى الله تعالى بنعمه وعوائده الجميلة لقوله (وَلَمْ أَكُنۢ) الخ كما قدمنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا)

[٦] (يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ، وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

« وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى » أى الذين يلون أمر رهطى من بعد موتى ، لعدم صلاحية أحد منهم لأن يخلفنى فى القيام بما كنت أقوم به ، من الإرشاد ووعظ العباد ، وحفظ آداب الدين . والتمسك بهديه المتين « وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا » أى لا تلد من حين شبابها « فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ » أى هب لى ولدا ، يلى من الأمر ما كنت إليه وارثاً ، لى ولآل يعقوب ، فى العلم والنبوة . وفى قوله (مِن لَّدُنكَ) إعلام بأنه من محض الفضل وخرق العادة . لعدم صلاحية زوجه للحمل . وتنويه به لكونه مضافاً إلى الله تعالى ، وصادراً من عنده . و (آل يعقوب) أولاده الأنبياء ، عليهم السلام . « وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيًّا عندك قولا وفعلًا .

ثم بيّن تعالى استجابة دعاء زكريا بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)

« يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا » أى مثلًا وشبيهاً . وعن ابن عباس : لم تلد العواقر قبله مثله . وروى أنه لم يعص ، ولم يهمّ بمعصية قط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا)

« قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا » أى حالة لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها . وقيل : إلى رياضته . وهى الحال المشار إليها بقول الشاعر :

* ومن العناء رياضة الهرم *

قاله الراغب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا)

« قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا » أى من إنسان ونطفة وعلقة وعناصر ، ثم وجدت .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لِمَ طلب أولًا ، وهو وامرأته على صفة العتىّ والعقر ، فلما أسعف بطلبته استبعد واستعجب؟ قلت : ليجاب بما أجيب به ، فيزداد المؤمنون إيقاناً ، ويرتدع المبطلون . وإلا فمعتقد زكريا أولا وآخراً ، كان على منهاج واحد ، فى أن الله غنىٌّ عن الأسباب . انتهى .

وقال أبو السعود : إنما قاله عليه السلام ، مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله ، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمران ، استعظاماً لقدرة الله تعالى ، وتعجيبا منها ، واعتداداً بنعمته تعالى عليه فى ذلك ، بإظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله . مع كونه فى نفسه من الأمور المستحيلة عادة ، لا استبعاداً له. وقيل : كان ذلك منه استفهاماً عن كيفية حدوثه . أى : أيكون الولد ونحن كذلك؟ فقيل : كذلك . أى يكون الولد وأنتما كذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ، قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)

« قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً » أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحمل، ليطمئن قلبى « قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا » أى: أن لا تقدر على تكليمهم، حال كونك سويا ، بلا مرض فى بدنك ، ولا فى لسانك .

لطيفة :

إنما ذكر « الليالى » هنا ، و (الأيام) فى آل عمران ، للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس ، والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها . والعرب تتجوز أو تكتفى بأحدهما عن الآخر. والنكتة فى الاكتفاء بـ (الليالى) هنا وبـ (الأيام) ثمّ، أن هذه السورة مكية سابقة النزول. وتلك مدنية. والليالى عندهم سابقة على الأيام. لأن شهورهم وسنيّهم قمرية، إنما تعرف بالأهلة . ولذلك اعتبروها ، فى التاريخ ، كما ذكره النحاة ، فأعطى السابق للسابق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

« فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ » أى مصلاه أو غرفته « فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ » أى أشار إليهم رمزاً « أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » أى صلوا لله طرفى النهار . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٢] (يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ، وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا)

« يَٰيَحْيَىٰ » استئناف ، طوى قبله جمل كثيرة ، مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم . وهو وجود هذا الغلام المبشّر به ، وتعليمه التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم[1] بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً . فلهذا نوه بذكره ، وبما أنعم عليه وعلى والديه. أى : قلنا (يايحيى) « خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ » أى تعلم التوراة بجدّ وحرص واجتهاد . « وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا » أى الحكمة وفهم التوراة والعلم والاجتهاد فى الخير ، وهو صبىٌّ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ، وَكَانَ تَقِيًّا)

[١٤] (وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا)

« وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا » أى وآتيناه حناناً : وهو التحنن والتعطف والشفقة . وتنوينه للتفخيم . أى رحمة عظيمة يشفق بها على الخلق . أو حناناً من الله عليه « وَزَكَوٰةً » أى طهارة من الذنوب، وعصمة بليغة منها «وَكَانَ تَقِيًّا* وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا » أى متكبرا عاقًّا لهما ، أو عاصياً لربه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)

« وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ » أى من الله «يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» أى ليستقبل النعيم الأبدىّ . و (السلام) بمعنى السلامة والأمان من الآفات. وفيه معنى التحية والتشريف.

---

(١) [٥ / المائدة / ٤٤] .

وفى ذكر الأحوال الثلاث ، زيادة فى العناية به ، صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ » أى القرآن « مَرْيَمَ » أى نبأها « إِذِ ٱنتَبَذَتْ » أى اعتزلت وانفردت « مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » أى شرقىّ بيت المقدس . لئلا يشغلوها عن العبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)

« فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا » أى لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق « فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا » أى جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا ، لغاية كماله ، لينفخ فيها « فَتَمَثَّلَ لَهَا » أى فتصور لرؤيتها « بَشَرًا سَوِيًّا » أى سوىّ الخلق ، كامل الصورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا)

« قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ » أى أعتصم به منك . إنما خافته لانفرادها فى خلوتها ، وظنها أنه يريدها على نفسها . وفى ذلك من الورع والعفاف مالا غاية وراءه « إِن كُنتَ تَقِيًّا » أى تتقى الله تعالى ، وتبالى بالاستعاذة به . وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه . أى فإنى عائذة به . أو فلا تتعرض لى . وإنما ذكّرته بالله تعالى ، لأن المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل . فخوفته أولًا بالله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا)

« قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ » أى لا تخافى ولا تتوقعى ما توهمت . فإنى رسول ربك

الذى استعذت به ، بعثنى إليك « لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا » أى لأكون سبباً فى هبته . و (الزكىّ) الطاهر من الذنوب أو النامى على الخير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)

« قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » أى تعجبت من هذا وقالت : كيف يكون لى غلام ، أى على أى صفة يوجد منى ، ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور ؟

قال الزمخشرىّ : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله تعالى[1] (مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ)[2] (أَوْ لَٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ) والزنى ليس كذلك . إنما يقال فيه (فجر بها ، وخبث بها) وما أشبه ذلك . وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب . وإنما اقتصر فى سورة آل عمران على قوله[3] (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) لكون هذه السورة متقدمة النزول عليها . فهى محل التفصيل . بخلاف تلك . فلذا حسن الاكتفاء فيها . وقيل : جعل المس ثَمَّ ، كناية عنهما ، على سبيل التغليب . و (البغىُّ) الفاجرة التى تبغى الرجال . ووزنه (فعول) ولذا لم تلحقه التاء ، لأنه يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وإن كان بمعنى فاعل كصبور . أو فعيل بمعنى فاعل ، ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا)

« قَالَ » أى الملك « كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ » أى

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٧] . (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .
(٣) [٣ / آل عمران / ٤٧] .

برهاناً يستدلون به على كمال قدرة بارئهم وخالقهم الذى نوع خلقهم. فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى . وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر. فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه «وَرَحْمَةً مِّنَّا » أى عليك بهذه الكرامة، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده، فيهتدون بهديه ويسترشدون بإرشاده . وقوله « وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا » من تتمة كلام جبريل لمريم . يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيئته . أو من خبره تعالى لنبيه صلوات الله عليه . وأنه كنى به عن النفخ فى فرجها . كما قال تعالى[1]: (وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) وقال[2] (وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا)

«فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا » أى لما صارت حاملاً به، اعتزلت بسببه مكاناً بعيداً من قومها ، فراراً من القالة . وقد روى عن السلف أن جبريل لما قال لها ، عن الله تعالى ، ماقال ، مما تقدم ، استسلمت لقضاء الله تعالى فاطمأنت إلى قوله . فدنا منها ففخ فى جيب درعها . فسرت النفخة حتى ولجت فى الفرج ، فحملت بإذن الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا)

« فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ » أى: فألجأها ألم الولادة إلى الاستناد بالجذع

(١) [٦٦ / التحريم / ١٢] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ٩١] .

لتعتمد عليه وتستتر به . و (أجاء) ـ قال الزمخشريّ ـ منقول من (جاء) إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء . وقرئ (المخاض) بكسر الميم وكلاهما مصدر (مخضت المرأة) إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج « قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا » أى الحمل « وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا » أى شيئاً تافها ، شأنه أن ينسى ولا يعتد به . منسيًّا لا يخطر على بال أحد . وهو نعت للمبالغة . وإنما قالت ذلك ، لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود ، الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد . فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهى عارفة ببراءة الساحة ، وبضد ماقرفت به ، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام ـ قال الزمخشريّ ـ لأنه مقام دحض ، قلما تثبت عليه الأقدام ، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر ، تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ، ثم تراه عند الناس لجهلهم به ـ عيبا يعاب به ويعنف بسببه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)

« فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ » أى من مكان أسفل منها ، تحت أكمة ، وهو جبريل . وقيل : هو عيسى ، وقرئ (مَنْ) بفتح الميم موصولة « أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » أى سيداً نبيلاً رفيعا ، وقيل : نهراً يسرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)

« وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا » أى حضراً وان اجتنائه . قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلَّى بالسرىّ والرطب ! قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان

الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريبة ، وأمن مثلها ، مما قرفوها به، بمعزل . وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا)

« فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا »أى بالكمال والولد المبارك ، الموجود بالقدرة ، الموهوب بالعناية. قال الزمخشرىّ: أى جمعنالك فى السرىّ والرطب فائدتين: إحداها الأكل والشرب والثانية سلوة الصدر ، لكونهما معجزتين . وهو معنى قوله (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) أى وطيبي نفسا ولا تغتمى . وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا» أى من المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب، الذين لايفهمون قولك ولايصدقون بحالك . لوقوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق . فإذا سألوك « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا » أى لا تكلميهم فى أمرك شيئاً . ولاتمادّيهم فيما لا يمكنهم قبوله . وإنما أمرتْ بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام . فإنه نص قاطع فى براءة ساحتها ، فقوله (صَوْمًا) . أى صمتاً . وقوله (فَلَنْ أُكَلِّمَ) الخ تفسير للنذر بذكر صيغته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٧] (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)

« فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا» أى عظيما منكراً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)

« يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا » استئناف لتجديد التعبير ، وتأكيد التوبيخ ، وتقرير لكون ما جاءت به فريا . و (هارون) هو النبىّ الشهير ، صلوات الله عليه يعنون أنها مثله فى الصلاح . لأن الأخ والأخت يستعمل بمعنى (المشابه) كثيرا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا)

« فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا۟ » منكرين لجوابها « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا » ولم يعهد تكليم عاقل لصبىّ فى المهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا)

[٣١] (وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

« قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ » أنطقه الله بذلك . أولًا تحقيقاً للحق فى شأنه وتنزيهاً لله تعالى عن الولد ، ردًّا على من يزعم ربوبيته ونبوّته « ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ » أى الإنجيل « وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ » أى كثير الخير حيثما وجدت . أبلغ وحى ربى لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات . والتعبير بلفظ الماضى فى الأفعال الثلاثة ، إما باعتبار ماسبق فى القضاء المحتوم ، أو جعل الآتى ، لا محالة ، كأنه وجد « وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » أى أمرنى بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)

[٣٣] (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)

[٣٤] (ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)

[٣٥] (مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ، سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)

[٣٦] (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

«وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا» أى مستكبراً عن طاعته وأمره « وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَٰلِكَ » أى الذى فصلت نعوته الجليلة وخصائصه الباهرة « عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ » أى لا ما يصفه به النصارى . وهو تكذيب لهم، فيما يزعمونه ، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانىّ . حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه « قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » أى : ومَن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ وهذا كقوله تعالى[1] (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ) ثم أشار إلى تتمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده ، بقوله سبحانه « وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ » أى قويم . من اتبعه رشد وهدى . ومن خالفه ضلّ وغوى .

(١) [٣ / آل عمران / ٥٩و٦٠] .

تنبيهات فى فوائد هذه القصة

الأول ـ لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجته ، ولداً زكيًّا طاهراً مباركاً ، عطف بذكر قصة مريم فى إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة . ولهذا ذكرهما فى آل عمران، وهٰهنا ، وفى سورة الأنبياء . يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما فى المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه . وأنه على ما يشاء قدير . و(مريم) هى بنت عمران . من بيت طاهر طيب فى بنى إسرائيل. وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها فى سورة آل عمران. وأنها نذرتها محررة للعبادة . وأنه تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً فنشأت فى بنى إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى الناسكات المتبتلات . وكانت فى كفالة زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقا . كما تقدم فى سورة آل عمران .

الثانى ـ استدل بقوله تعالى[1]: (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا) من قال بنبوة مريم. واستُدل بقوله تعالى عنها[2] . (يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا) على جواز تمنى الموت لمثل تلك الحال . وبقوله تعالى[3]. (وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ) على التسبب فى الرزق، وتكلف الكسب وإليه أشار القائل :

ألم تر أنَّ اللهَ قال لمريمٍ ... وهُزِّى إليك الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرطَبْ

ولو شاء أحنى الجذعَ من غير هزِّهِ ... إليها . ولكن كلُّ شىء لَهُ سَبَبْ

وفى الآية أصل لما يقوله الأطباء ، إن الرطب ينفع النساء . واستدل بقوله تعالى : (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ) بعدَ (فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا) على أن الحالف (لا يتكلم أو لا يكلم فلانا) لا يحنث بالإشارة . وعلى أن السكوت عن السفيه واجب ، كما استنبطه الزمخشرى، قال:

(١) [١٩ / مريم / ١٧ . (٢) [١٩ / مريم / ٢٣] . (٣) ١٩ / مريم / ٢٥] .

ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها . وفى قوله تعالى (مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ) معنى قولهم فى المثل : من أشبه أباه فما ظلم . وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش .

الثالث ـ نقل الرازىّ عن القاضى فى قوله تعالى[1] : (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ) الخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان . ومنه السلامة فى النعم وزوال الآفات . فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيي . ولابد فى الأنبياء من أن يكونوا مستجابى الدعوة . وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هى هذه الأحوال الثلاثة : وهى يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث . فجميع الأحوال التى يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى ، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات فى كل الأحوال .

الرابع ـ قال القاشانىّ : وإنما تمثل لها بشراً سوىّ الخلق حسن الصورة، لتتأثر نفسها به وتستأنس . فتتحرك على مقتضى الجبلة . ويسرى الأثر من الخيال فى الطبيعة . فتتحرك شهوتها فتنزل كما يقع فى المنام من الاحتلام وتنقذف نطفتها فى الرحم فيتخلق منه الولد . وقد مرّ أن الوحى قريب من المنامات الصادقة ، لهذء القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما فى النوم . فكل مايرى فى الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة فى اصطلاحنا (قلباً) والاتصالات التى لها بالأرواح القدسية ، يسرى فى النفس الحيونية والطبيعية وينفعل منه البدن . وإنما أمكن تولد الولد من نطفة واحدة . لأنه ثبت فى العلوم الطبيعية أن منىّ الذكر فى تكوّن الولد، بمنزلة الإنفحة فى الجبن . ومنى الأنثى بمنزلة اللبن، أى العقد من منىّ الذكر والانعقاد من منى الأنثى . لا على معنى أن منىّ الذكر ينفرد بالقوة العاقدة ومنىّ الأنثى بالقوة المنعقدة ، بل على معنى أن القوة العاقدة فى منى الذكر أقوى . والمنعقدة فى منىّ الأنثى أقوى. وإلا لم يمكن أن يتحد اشيئاً واحداً . ولم ينعقد منىّ الذكر حتى يصير جزءاً من الولد . فعلى هذا إذا

(١) [١٩ / مريم / ٣٣] .

كان مزاج الأنثى قويا ذكوريا ، كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوّية القوى ، وكان مزاج كبدها حارًّا ، كان المنىُّ المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذى ينفصل من كليتها اليسرى . فإذا اجتمعا فى الرحم ، كان مزاج الرحم قويًّا فى الإمساك والجذب ، قام المنفصل فى الكلية اليمنى ، مقام الذكر فى شدة قوة العقد . والمنفصل من الكلية اليسرى مقام منىّ الأنثى فى قوة الانعقاد ، فيتخلق الوالد هذا . وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس ، متقوية ، يسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ، وبغير المزاج ويمد جميع القوى فى أفعالها بالمدد الروحانىّ ، فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس . والله أعلم .

ثم قال فى قوله تعالى : (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) فى اللوح مقدراً فى الأزل . وعن ابن عباس : فاطمأنت إليه بقوله : (إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا) فدنا منها ففتح فى جيب الدرع ، أى البدن ، وهو سبب إنزالها على ماذكرنا . كالغلمة مثلا والمعانقة التى كثيرا ما تصير سبباً للإنزال . وقيل : إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله واتصالها بها وتعلقه بنطفتها . والحق أنه روح القدس . لأنه كان السبب الفاعلىّ لوجوده كما قال : (لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا) . واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة فى الرحم ، واستقرارها فيه ، ربما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح . انتهى .

الخامس ـ التمثّل مشتق من المثل . ومعناه التصور . وفيه دليل على أن الملَك يتشكل بشكل البشر .

قال إمام الحرمين : تمثلُ جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه . ثم يعيده إليه بعدُ .

وجزم ابن عبد السلام : بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها

موجباً لموته ، بل يجوز أن يبقى فى الجسد حيًّا. لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلًا ، بل بعادة أجراها الله تعالى فى بعض خلقه ، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح فى الجنة .

وقال البلقينىّ : ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه . بل يجوز أن يكون الآتى جبريل بشكله الأصلىّ . إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل . وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته . ومثال ذلك القطن، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً . فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة، وذاته لم تتغير . وهذا على سبيل التقريب . والحق أن تمثل الملك رجلًا ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلًا ، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيسًا لمن يخاطبه. والظاهر أيضاً أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى ، بل يخفى على الرائى فقط . والله أعلم . كذا قال ابن حجر فى فتح البارى .

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب ، واقتفاء مالم يحط بكنهه. فالخوض فيه عبث ينتهى خائضه إلى حيث ابتدأ . لأنه من عالم الغيب الذى لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل . ولم يرد عن المعصوم ﷺ فيه نص قاطع . وكل ما كان كذلك فليس من شأننا أن نبحث فيه . فاعرف ذلك فإنه ينفعك فى مواضع عديدة .

السادس ـ قال بعضهم : أصل كلمة (عيسى) يسوع . فحرفه اليهود إلى (عيسو) تهكما فحوله العرب إلى (عيسى) تشبها باسم موسى . ولبدل الواو بالألف سبب مبنىّ على قواعد اللغة العبرانية ، بل والعربية انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

« فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ » أى اختلف قول أهل الكتاب فى عيسى، بعد بيان أمره

ووضوح حاله . وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر . وانقسمت النصارى فى أمره انقساماً يفوت الحصر . وكله ضلال وشرك وكفر . وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه. وهذا من فضله تعالى ومنّه «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يعنى بالذين كفروا، المختلفين. عبّر عنهم بالموصول إيذاناً بكفرهم جميعاً وإشعاراً بعلة الحكم . وفى (مَشْهَدِ) ستة أوجه . لأنه مصدر ميمىّ أو اسم زمان أو مكان . وعلى كل فهو إما من (الشهود) أى الحضور أو (الشهادة) . وهذا معنى قول الزمخشرىّ : أى فى شهودهم هول الحساب والجزاء إلى يوم القيامة . أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف . أو من وقت الشهود . أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال . أو من مكان الشهادة أو وقتها .

وقيل: معناه ماشهدوا به فى عيسى وأمه. فعظمه لعظم مافيه أيضاً . كقوله[1] (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) وفيه وعيد لهم وتهديد شديد . وذلك لأنه لا أظلم ممن كذب بالحق لما جاءه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا، لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ . ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء جدير بأن يتعجب منهما بعد أن كانوا فى الدنيا صما عميا . والآية كقوله تعالى[2] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) الآية أى يقولون ذلك حين لا يجدى عنهم شيئاً . ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لأجدى « لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ » أى فى الدنيا « فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ »

(١) [١٨ / الكهف / ٥] . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

لإغفالهم الاستماع والنظر . فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون . قال الزمخشرىّ : أوقع الظاهر أعنى (الظالمين) موقع الضمير ، إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر ، حين يجدى عليهم ويسعدهم .

تنبيه :

إنما أوّل التعجب فى الآية بما ذكر ، وأنه مصروف للعباد الذين يصدر منهم التعجب ، لأن صدوره من الله تعالى محال . إذ هو كيفية نفسانية تنشأ عن استعظام مالا يدرى سببه . ولذا قيـل : إذا ظهر السبب بطل العجب . والمعنى تعجبوا من سمعهم وإبصارهم حيث لا ينفعهم ذلك . فهى كقوله تعالى[1] (فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) أفاده الشهاب .

وهذه طريقة المتكلمين فى تأويل ما يشترك فى الإضافة إليه تعالى وإلى خلقه من الصفات المروية . وطريقةُ السلف المحققين إثباتُ ماورد به السمع مع نفى التشبيه . إذ لا اتحاد بين صفات الخالق وصفات المخلوق . فما يضاف إليه تعالى هو على النحو الذى يجب أن يكون عليه جل جلاله . فما يقدر فى حق المخلوقين من الصفات مستلزماً للمحال ، لا يجب أن يكون فى حقه تعالى مستلزماً لذلك . كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والـكلام فينا ، يستلزم من النقص والحاجة ، ما يجب تنزيه الله عنه . وكذلك الوجود والقيام بالنفس فينا ، يستلزم احتياجاً إلى خالق يجعلنا موجودين . والله منزه فى وجوده عما يحتاج إليه وجودنا . فنحن وصفاتنا وأفعالنا . مقرونون بالحاجة إلى الغير . والحاجة لنا أمر ذاتىّ لا يمكن أن نخلو عنه . وهو سبحانه ، الغنى له أمر ذاتىّ لا يمكن أن يخلو عنه . فهو بنفسه حىّ قيوم واجب الوجود ، ونحن بأنفسنا محتاجون فقراء . فإذا كانت ذاتنا وصفاتنا وأفعالنا وما اتصفنا به من الـكمال ، من العلم والقدرة وغير ذلك ، هو مقرون بالحاجة والحدوث والإمكان ، لم يجب أن لا يكون لله ذات

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] .

ولا صفات ولا أفعال، وأن لا يقدر ولا يعلم . لكون ذلك ملازماً للحاجة فينا. فكذلك كل ما جاء به السمع من الصفات ، إذا قدر أنه فى حقنا ملازم لحاجة وضعف ، لم يجب أن يكون فى حق الله تعالى ملازماً لذلك . هذا ماقرره الإمام تقيّ الدين بن تيمية فى خلال بعض فتاويه. وكلامه هذا بمثابة القاعدة الكلية لأمثال هذا الموضوع . فاحفظه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ، وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

[٤٠] (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

«وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ» أى فرغ من الحساب وفصل بين أهل الجنة والنار ، وصار كلٌّ إلى ما صار إليه مخلداً فيه « وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ » أى وهم اليوم مستغرقون فى غفلة عما يفعل بهم فى الآخرة « وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يصدقون به اليوم وسيعاينونه. ثم أمر تعالى رسوله أن يتلو عليهم نبأ إبراهيم لكونهم ينتمون إليه فيعتبروا فى توحيده الخالص ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ، إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)

[٤٢] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا)

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا » بليغ التصديق بما يجب لله من الوحدانية والتنزيه « نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ » أى مُتَلَطِّفاً فى دعوته إلى التوحيد ونهيه عن عبادة الأصنام « يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا » أى أى فلا يدفع ضرًّا ولا يجلب نفعاً .

قال أبو السعود : ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن منهاج، وأقوم سبيل . واحتج عليه

أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل. لئلا يركب متن المكابرة والعناد. ولا ينكب، بالكلية، عن محجة الرشاد. حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل، من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه، فضلًا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم. مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام، والإنعام العام. الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب. ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل، لداعية صحيحة وغرض صحيح. والشيء لو كان حيًّا مميزاً سميعاً بصيرا، قادرا على النفع والضر، مطيقاً بإيصال الخير والشر، لكن كان ممكنا، لاستنكف العقل السليم عن عبادته. وإن كان أشرف الخلائق. لما راه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة. فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ؟.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٣] (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا)

« يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ » أى وحق القاصر اتباع الإنسان الكامل « فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا » أى معتدلًا لا إفراط فيه بعبادة من لا يستحق، ولا تفريط بترك عبادة من يستحق، وكذا فى باب الأخلاق والأعمال. قال المهايمىّ : أى وإن كان حق الابن اتباع الأب فى العرف، لكنه باطل. لأن الحق اتباع الصواب.

قال الزمخشرىّ : ثنّى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً. فلم يسمّ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق. ولكنه قال: إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوىّ. فلا تستنكف. وهب أنى وإياك فى مسير، وعندى معرفة بالهداية دونك، فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ، إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا)

« يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا » .

ثلّث عليه السلام بتثبيطه ونهيه عما كان عليه، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ، ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة ، مستجلب لضرر عظيم ، فإنه فى الحقيقة عبادة الشيطان . لما أنه الآمر به والمسوّل له، وقوله : (إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ) الخ تعليل لموجب النهى وتأكيد له، ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم . ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص . والإظهار فى موضع الإضمار لزيادة التقرير. والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته، لأنه ملاكها . والتعرض لعنوان الرحمانية ، لإظهار كمال شناعة عصيانه . أفاده أبو السعود.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٥] (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا)

« يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ » لكونك عصيته ووالیت عدوّه ، فيقطع رحمته عنك ، كما قطعها عن الشيطان « فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا » أى مقارناً له ومشاركاً معه فى عذابه .

قال الزمخشرىّ : ربَّعَ عليه السلام بتخويفه سوء العاقبة ، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال . ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرّح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال (أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ) فذكر الخوف والمس ونكّر العذاب . وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه ، أكبر من العذاب . وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله (يَـٰٓأَبَتِ) توسلاً إليه واستعطافاً . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ، لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ، وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا)

« قَالَ » أى أبوه ، مصرًّا على عناده لفرط غلوّه فى الضلال « أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ » أى : أمعرض ومنصرف أنت عنها . وإنما قدم الخبر على المبتدأ ، لأنه كان أهم عنده . وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة ، على ضرب من التعجب . كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل ، فضلًا عن ترغيب الغير عنها . وفيه تسلية للرسول صلوات الله عليه ، عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه .

وقوله « لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ » تهديد متناه . أى لئن لم تنته عن القول فيهـا ، وعن نصحك ، لأرجمنك بالحجارة « وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا » أى تباعد عنى زماناً طويلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا)

« قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا » أى مبالغاً فى اللطف بى . وفى جوابه بقوله عليه السلام (سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ) مقابلة السيئة بالحسنة . كما قال تعالى[1] (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا) أى لا أصيبك بمكروه بعدُ . ولكن سأدعو ربى أن يغفر لك . كما قال[2] (وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ) قال الزمخشرىّ : وفى الآية دليل على جواز متاركة المنصوح ، والحال هذه . ويجوز أن يكون دعا له بالسلامة ، استمالة له . ألا ترى أنه وعده بالاستغفار؟

وفى (الإكليل) : استدل بعضهم بالآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٨٦] .

وقال ابن كثير : قد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام. وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحق فى قوله[١] (رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ) وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام . وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك. حتى أنزل الله تعالى[٢] (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) إلى قوله (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) يعنى إلا فى هذا القول ، فلا تتأسّوا به . ثم بيّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه ، فقال تعالى[٣] (مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ) إلى قوله (وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ) . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا)

« وَأَعْتَزِلُكُمْ » أى أتباعد عنك وعن قومك بالهجرة « وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى من أصنامكم .

قال الزمخشرىّ : المراد بالدعاء العبادة ، لأنه منها ومن وسائطها . ومنه قوله عليه السلام[٤] : الدعاء هو العبادة . ويدل عليه قوله تعالى[٥](فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ)

---

(١) [١٤/ إبراهيم/ ٤١]. (٢) [٦٠/ الممتحنة/ ٤]. (٣) [٩/ التوبة/ ١١٣و١١٤].

(٤) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ١٦ ـ حدثنا هناد، عن النعمان بن بشير . (٥) [١٩ / مريم / ٤٩].

« وَأَدْعُواْ رَبِّى » أى أعبده وحده « عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا » أى خائباً ضائع السعى . وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم ، مع التواضع لله بكلمة (عَسَىٰٓ) ، وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب ، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا)

« فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » وذلك بالمهاجرة إلى الشام « وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا » أى جعلنا له بنين وحفدة ، أنبياء ، قرّت عينه بهم فى حياته . بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة الفجرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٠] (وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا » أى ما عُرِف فيهم من النبوّة والذرية وسعة الرزق وحوزة الأرض المقدسة «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» أى ثناءً حسناً . عبّر بـ(اللسان) عما يوجد باللسان . كما عبّر بـ (اليد) عما يطلق باليد وهى العطية . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوّ ، للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنى عليهم ، وأن مجاهدتهم لا تخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ، إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)

[٥٢] (وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا)

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا » بكسر اللام أى أخلص العبادة

عن الشرك ، وأسلم وجهه لله . وقرئ بفتحه . أى أخلصه الله ، أى اصطفاه ، كما قال[1] (إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ) « وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ » أى من جانبه الأيمن من موسى ، حين ذهب يبتغى من تلك النار جذوة ، فرآها تلوح فقصدها فوجدها ثمة . فنودى عنـدها « وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا » أى مناجياً ، أى كليما . إذ كلمناه بلا واسطة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا)

« وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا » ليشد أزره فى أداء الرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ، إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)

[٥٥] (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا)

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ » وهو ابن إبراهيم عليهما السلام . وإنما فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه ، لإبراز كمال الاعتناء بأمره ، بإيراده مستقلًا . وقوله « إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ » تعليل للأمر . وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف ، وإن شاركه فيه بقية الأنبياء ، تشريفاً له وإكراماً . ولأنه المشهور من خصاله . وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح ، فوفّى به حيث قال[2] (سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ) وهذا أعظم ما يتصور فيه . وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة . ولذا كان ضدها نفاقاً ، كما صرّحت به الأخبار. «وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا* وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ »أى كان يبدأ أهله فى الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم . ولأنهم أولى من سائر الناس (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٤] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] .

ٱلْأَقْرَبِينَ)[١] (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ)[٢] (قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)[٣] ألا ترى أنهم أحق بالتصدق عليهم؟ فالإحسان الدينيّ أولى. أفاده الزمخشريّ . «وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا » أى لا تصافه بالنعوت الجليلة التى منها ما ذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ، إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)

[٥٧] (وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا)

«وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا» هو شرف النبوّة والزلفى عند الله تعالى . فالعلوّ معنوىّ . أو رفعه بجسده حيًّا إلى السماء . قال الشهاب : قيل : والثانى أقرب لأن الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنوية ، وفيه نظر لأنه ورد مثله بل ما هو أظهر منه ، كقوله :

وكن فِى مَكانٍ إِذَا مَا سَقَطْتَ تَقُومُ وَرِجْلَاكَ فِى عَافِيَهْ

انتهى. ومما يؤيد الثانى ما روى فى الصحيحين[٤] عن أنس فى حديث المعراج؛ أنه صلوات الله عليه رأى إدريس فى السماء الرابعة. وإدريس هو إلياس الآتى ذكره فى سورة الصافات . ويسمى فى التوراة إيليا . ولرفعه إلى السماء فيها نبأ عجيب، قد يكون التنزيل الكريم فى هذه الآية أشار إليه والله أعلم . وقوله تعالى :

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢١٤] .(٢) [٢٠ / طه / ١٣٢] .(٣) [٦٦ / التحريم / ٦]

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ ـ باب المعراج ، حديث رقم ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٦٤ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا) ﴿سجدة﴾

« أُوْلَـٰٓئِكَ » إشارة إلى المذكورين فى السورة من لدن زكريا إلى إدريس عليه السلام. وما فيه من معنى البعد، للإشعار بعلوّ رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل . وقوله تعالى : « ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم » أى بفنون النعم الدينية والدنيوية « مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ » أى هديناهم للحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة « إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا » أى إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة . مع ما لهم من علوّ الرتبة . وسموّ الزلفى عنده تعالى . وفى الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة .

قال ابن كثير : أجمع العلماء على مشروعية السجود ههنا ، اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم . وروى ابن جرير[1] وابن أبى حاتم : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ سورة مريم فسجد. وقال : هذا السجود فأين البكىّ .

ولما ذكر تعالى حزب السعداء ، وهم الأنبياء ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره ذكر من نبذ دعوتهم ممن خلفهم ، وما سيئالهم ، بقوله سبحانه :

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء السادس عشر من تفسير ابن جرير (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ » وقرئ (الصلوات) بالجمع أى المتضمنة للسجود والأذكار ، المستدعية للبكاء . وإذا أضاعوها ، فهم لما سواها من الواجبات أضيع . لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد « وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ » أى فأتوا بما ينافى البكاء والأمور المرضية من الأخلاق والأعمال ، من الانهماك فى المعاصى التى هى بريد الكفر « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أى شرًّا . قال الزمخشرىّ : كل شر عند العرب غىّ ، وكل خير رشاد . قال المرقش[1] :

فمن يلقَ خيراً يحمَدِ الناسُ أمرَهُ ومن يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغىّ لائما

أى من يفعل خيراً ، يحمد الناس أمره . ومن يفعل الشر لا يعدم اللوائم على فعله . وقيل : أراد الشاعر بالخير المال ، وبالغىّ الفقر . أى ومن يفتقر . ومنه[2] القائل :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى . ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

أى الثكل . ويجوز أن يكون المعنى جزاء غىّ . كقوله تعالى[3] (يَلْقَ أَثَاماً) أى شرًّا وعقاباً . فأطلق عليه كما أطلق الغىّ على مجازاته المسببة عنه ، مجازا . أو (غَيًّا) ضلالًا عن طريق الجنة . فهو بمعناه المشهور .

---

(١) هذا هو البيت الثانى والعشرون من المفضلية السادسة والخمسين . ومطلعها :

أَلَا يا اسلمى . لا صُرْمَ لى اليومَ فاطِمَا ولا أبَدًا ، ما دامَ وصلُكِ دائمَا

(٢) قائله القطامىّ . أجد أصحاب المشوبات ، من قصيدته التى مطلعها :

إنَّا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أيُّهَا الطَّلَلُ وإنْ بَلِيتَ ، وإن طالَتْ بِكَ الطِّوَلُ

وطال طولك ، أى عمرك .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا)

[٦١] (جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا)

« إِلَّا مَن تَابَ » أى عن ترك الصلوات واتباع الشهوات « وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا * جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ » متعلق بمضمر العائد إلى الجنات . أو من (عباده) أى وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب . أى غائبة عنهم غير حاضرة . أو غائبين عنها لا يرونها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الأخبار. أو بمضمر هو سبب للوعد . أى وعدها إياهم بسبب إيمانهم، أفاده أبوالسعود « إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا » أى لا يخلفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

[٦٣] (تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا)

« لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا » أى لا يسمعون فيها فضول كلام لا طائل تحته . وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها . قال الزمخشرىّ رحمه الله : فيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه . حيث نزه الله عنه الدار التى لا تكليف فيها . وما أحسن قوله[(١)] سبحانه: (وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا) (وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ)[(٢)] نعوذ بالله من اللغو والجهل والخوض فيما لا يعنينا .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧٢] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٥] .

ومعنى (إِلَّا سَلَامًا) أى تسليماً . وهو تسليم الملائكة عليهم ، أو بعضهم على بعض ، على الاستثناء المنقطع كما قال[1]: (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا *إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا*تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» وهم المتصفون بشعب الإيمان ، المسرودة فى مواضع شتى من آى القرآن . ولما قص سبحانه من أنباء الأنبياء عليهم السلام ما قص ، مثبتاً له ، وعقبه بما أحدثه الخلف ، وذكر جزاءهم ـ عقبه بحكاية نزول جبريل عليه السلام ، ردًّا لما زعمه المشركون من أنه كان يقلوه فلايزوره ، تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وإعلاماً بأن الحال ليس على مازعمه هؤلاء الخلف. فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا »أى ينسى شيئاً ما، بل لا يفيض علماً ولاينزل ملكا إلا لحكمة يستعد لها الحال، أى فليس عدم النزول إلا لعدم الأمر به ، ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه إياك . وفى إعادة اسم (الرب) المعرب عن التبليغ إلى الكمال اللائق ، مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من تشريفه والإشعار بعلة الحكم ، ما لا يخفى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)

«رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أى من التوابع والنجيمات والسحب وغيره ذلك.

(١) [٥٦ / الواقعة / ٢٥ و ٢٦] .

قال بعض علماء الفلك : الآية تدل على أن السموات أكثر من سبع . وأن ذكر السبع ليس للحصر كما قدمناه فى البقرة ، من أن السموات عنى بها الكواكب، والأرض كوكب منها .

قال أبو السعود : الآية بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى . فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما، كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان . وهو خبر محذوف . أو بدل من (ربك) . « فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ » أى اثبت لها على الدوام. وقوله «هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا» أى مثلًا وكفوًا ، فتلتفت إليه وتقبل بوجهك نحوه ، فيفيض عليك مطلوبك. والجملة تقرير لوجوب عبادته وحده . أى إذا صح أن لا مثل له، ولا يستحق العبادة غيره ، لم يكن بدٌّ من التسليم لأمره ، والقيام بعبادته ، والاصطبار على مشاقها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا)

« وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » أى يقول بطريق الإنكار والاستبعاد : أأخرج حيًّا بعد ما لبثت فى القبر مدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا)

« أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا » أى قبل جعله تراباً ونطفة . وكان عدماً صرفاً لا وجود له فى الأعيان . فلا تبعد إعادته .

قال أبو السعود : وفى الإظهار موضع الإضمار ، زيادة التقرير بأن الإنسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المنحية بالقلع عن القول المذكور . وهو السرّ فى إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان . أى ما أعجب الإنسان فى إنكاره وعدم تذكره لما ذكر ، وهو الذى أعطى العقل لينظر فى العواقب ، وأنعم عليه بخلق السموات والأرض وما بينهما ، ليعرف المنعم فيشكره ، ويعبده فيجازى على فعله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)

« فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ » أى لنحشرن المنكرين للبعث مع الشياطين الذين أغووهم وأضلوهم عن الحق « ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا » جمع (جاث) . من (جثا) إذا قعد على ركبتيه . وذلك لهول المطلع . فلا يستطيعون قياماً . كقوله تعالى[1] (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا)

« ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا » أى لنخرجن إلى النار، من كل فرقة ، الذى هو أشد على الرحمن، الذى رحمه بإنزال الكتاب وإرسال الرسول وتعريف مضار الشهوات بالعقل والنقل، (عِتِيًّا) أى جراءة، بإيثار الشهوات على أمره وعدم مبالاته به.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا)

«ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا» وهم المنتزعون. فإنهم أولى الشيع. إذ ضلوا وأضلوا، لأجل لذات الدنيا وشهواتها. فصاروا أولى بالصلىّ بها. فيخصّون بعذاب مضاعف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا)

« وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » أى ليس أحد منكم ، من برّ وفاجر ، إلا وهو يَرِدُها. « كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا » أى حكماً جزماً مقطوعاً به .

---

(١) [٤٥ / الجاثية / ٢٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)

« ثُمَّ » أى بعد الورود والإحضار للتعريف « نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » أى لا يمكنهم التجاوز عنها .

قال الزمخشرىّ : فيه دليل على أن المراد بالورود ، الجثوّ حواليها . وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة ، بعد تجاثيهم . وتبقى الكفرة فى مكانهم جاثين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا » أى موضعاً ومكاناً « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجتمعاً للقوم ، والمعنى أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها ، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظا من الدنيا ، لكونهم أحسن منازل وأرفع دوراً وأعمر نادياً وأكثر طارقاً وواردا ، أى فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مختفون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم على الحق ؟ كما قال تعالى مخبراً[1] عنهم : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ) وقال قوم نوح[2] (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ) وقال تعالى[3] : (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ، أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ) .

وكذلك رد عليهم شبهتهم بقوله سبحانه :

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .
(٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٥٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا » أى متاعاً « وَرِءْيًا » أى منظراً وهيئة ، من عظم الجاه ، فما أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً . كما قال تعالى[1] عن قوم فرعون المغرقين (كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) و(رِءْيًا) فعل بمعنى مفعول كالطحن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ، حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا)

« قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا » أى من كان مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور . وهم المذكورون قبلُ ، ومن شا كلهم ، (فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ) أى يمدّ له ويمهله بطول العمر وإعطاء المال . وإخراجُه على صيغة الأمر للإيذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة ، لقطع المعاذير . كما ينبئ عنه قوله تعالى[2] : (أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى[3] : (إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا) وقيل المراد به الدعاء بالمدوالتنفيس والإمهال. أى فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله ، إما بعذاب يصيبه ، وإما الساعة بغتة . وقد بيّن سبحانه غاية المد بقوله :

« حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا » أى فئة وأنصاراً .

---

(١) [٤٤/ الدخان/ ٢٥و٢٦] . (٢) [٣٥/ فاطر/ ٣٧] . (٣) [٣/ آل عمران/ ١٧٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ، وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا)

« وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ، وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ » أى الأعمال التى تبقى فوائدها « خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا » أى مرجعا . وتكرير (الخير) لمزيد الاعتناء ببيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا)

« أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ » أى فى الآخرة « مَالًا وَوَلَدًا » أى انظر إلى هذا القائل المجترئ على الغيب ، ما أكفره !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا)

« أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا » أى بذلك ، لأنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا)

[٨٠] (وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)

« كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » أى نحفظه عليه للمؤاخذة به « وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا » بمضاعفته له ، جزاء لاستهزائه « وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ » أى ننزع عنه ما آتيناه من مال وولد ،

فلا يبقيان له حتى يمكنها قطع العذاب عنه « وَيَأْتِينَا فَرْدًا » أى فى الحشر ، لا يصحبه مال ولا ولد . فما يجدى عليه تمنّيه وتألّيه .

وقد روى البخارىّ[1] : عن خباب رضى الله عنه ، قال : كنت قينا ـ حدّادًا ـ فى الجاهلية بمكة ، فعملت للعاص بن وائل سيفاً ، فجئت أتقاضاه فقال : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. قلت: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث. قال . فذرنى حتى أموت، ثم أبعث فسوف أوتى مالًا وولداً فأقضيك . فنزلت الآية . قال ابن عباس : فضرب الله مثله فى القرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا)

« وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا » أى ليتعززوا بهم، بأن يكونوا لهم وصلة إليه عزّ وجلّ ، وشفعاء عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا)

« كَلَّا » أى ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا « سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ » أى ستجحد الآلهة استحقاقهم للعبادة « وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » أى يريدون إهلاكهم، إذ أوقعوهم فى هلاك دعوى الشرك . كما قال تعالى[2] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ) . وقال تعالى[3]: (وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٣٤ ـ كتاب البيوع ، ٢٩ ـ باب ذكر القين والحداد ، حديث رقم ١٠٦٠ . (٢) [٤٦/ الأحقاف/ ٥و٦] . (٣) [١٦/ النحل/ ٨٦] .

فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) قيل : المراد بالآلهة من عُبِدَ من ذوى العلم . لإطلاق ضمير العقلاء عليهم ونطقهم . وقيل : الأصنام . بأن يخلق الله فيهم قوة النطق ، فيطلق عليهم ما يطلق على العقلاء . وقيل : الأعم منهما ، وهو الأظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى بأن سلّطناهم عليهم ومكّناهم من إضلالهم . أو قيضناهم لهم يغلبون عليهم « تَؤُزُّهُمْ أَزًّا » أى تغريهم وتهيجهم على المعاصى ، بالتسويلات وتحبيب الشهوات ، تهييجاً شديداً .

قال الزمخشرىّ : الأز والهز والاستفزاز أخوات . ومعناها التهييج وشدة الإزعاج والمراد تعجيب رسول الله ﷺ ، بعد الآيات التى ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار ، وأقاويلهم وملاحاتهم ومعاندتهم للرسل ، واستهزاؤهم واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشك عنه ، وانهماكهم لذلك فى اتباع الشياطين وما تسوّل لهم . فهذه الآية كالتذييل لما قبلها وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ، إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا)

« فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ » أى بوقوع العذاب بهم لتطهر الأرض منهم . و (الفاء) للإشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهىّ عنه ، محوجة إلى النهى . يقال : عجلت عليه بكذا إذا استعجلته منه . وقوله تعالى « إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا » تعليل لموجب النهى ، ببيان اقتراب هلاكهم . أى إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، ونحوه قوله تعالى[1] (وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ) .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

قال الشهاب : العدّ كناية عن القلة . وقلته لتقضّيه وفنائه ، كما قال المأمون (ما كان ذا عدد ، ليس له مدد ، فما أسرع ما نفد) ولا ينافى هذا ما مرّ من أنه يمد لمن كان فى الضلالة. أى يطوّل. لأنه بالنسبة لظاهر الحال عندهم. وهو قليل باعتبار عاقبته وعند الله. ولله در القائل :

إن الحبيبَ من الأحباب مختلَسُ لايمنع الموتَ بوّابٌ ولا حَرَسُ
وكيف يفرحُ بالدنيــا ولذتِهَا فتى يُعَدّ عليه اللفظُ والنَفَسُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا)

« يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا » أى وافدين عليه . وأصل الوفود القدوم على العظماء للعطايا والاسترفاد . ففيه إشارة إلى تبجيلهم وتعظيمهم ، المزورِ والزائرِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا)

«وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا» أى عطاشا. وفى ذكرهم بالسَّوْق إشعار بإهانتهم واستخفافهم. كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء . والورد: الذهاب إلى الماء، ويطلق على الذاهبين إليه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا)

« لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا » الضمير لأصنامهم المتقــدم ذكرها فى قوله[1] (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً) ردٌّ على عابديهم فى دعواهم

(١) [١٩ / مريم / ٨١] .

أنهم شفعاؤهم عند الله . واتخاذ العهد هو الإيمان والعمل الصالح . أى لكن من آمن وعمل صالحاً فإنه يشفع للعصاة على ما وعد الله تعالى . وجوز أن يكون (العهد) بمعنى الإذن والأمر. يقال: أخذت الإذن فى كذا واتخذته بمعنى. من باب (عهد الأمير إلى فلان بكذا) إذا أمره به . أى لايشفع إلاالمأمور بالشفاعة، المأذون له فيها. وتعضده مواضع فى التنزيل[١] « وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ)[٢] (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ)[٣] (يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا) ونحو هذه الآية قوله تعالى[٤] (وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ولما قررتعالى فى هذه السورة عبوديةعيسى عليه السلام، وذكرخلقه من مريم بلا أب، عطف عليه حكايةجنايتهم من دعوى البنوّة له، مهولا لأمرها. وكذاجناية أمثالهم من اليهود والعرب ممن يسمى بعض المخلوقات ابنا أو بنتا له ، تعالى وتقدّس ـ عطف قصته على قصته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا)

[٨٩] (لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا)

«وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا* لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا» أى عظيما منكراً. وفى ردمقالتهم وتهويل أمرها بطريق الالتفات ، إشعار بشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع، والتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجراءة والجهل . ثم وصف شدة شأن مقولهم بقوله سبحانه :

---

(١) [٥٣ / النجم / ٢٦] .
(٢) [٣٤ / سبأ / ٢٣] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٠٩] .
(٤) [٤٣ / الزخرف / ٨٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٠] (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا)

[٩١] (أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا)

[٩٢] (وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا)

[٩٣] (إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا)

« تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ » أى يتشقّقن « وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَن » أى لأن « دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا » وذلك لغيرتها على المقام الربانىّ الأحدىّ أن ينسب له ما ينزه عنه ويشعر بحاجته ووجود كفء له وفنائه . وذلك لأن الولادة إنما تكون من الحىّ الذى له مزاج . وما له مزاج فهو مركب ونهايته إلى انحلال وفناء ، وهو سبحانه تنزه عن ذلك ، كما قال « وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا » أى مملوكا له يأوى إليه بالعبودية والذل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا)

[٩٥] (وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا)

« لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » أى حصرهم وأحاط بهم إحاطة لا يخرج بها أحد عن حيطة علمه وقبضة قدرته « وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا » أى منفردا مجردا من الأتباع والأنصار ، وعمن زعم أنه له من الشفعاء . فإنهم منهم برآء . ولما فصل مساوئ الكفرة ، تأثره بمحاسن البررة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا » أى يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، من غير تعرض للأسباب التى تكسب الود . كذا قالوا فى تأويله. وقال أبو مسلم : معناه أنه يهب لهم ما يحبون. قال: والود والمحبة سواء . آتيت فلانا محبته . وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده. ومن كلامهم: وددت لو كان كذا . أى أحببت. فمعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أى محبوبهم فى الجنة . ثم قال أبو مسلم: وهذا القول الثانى أولى لوجوه : أحدها ـ كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقى يبغضه الكفار وقد يبغضه كثير من المسلمين؟ وثانيها ـ أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر، فكيف يمكن جعله إنعاماً فى حق المؤمنين ؟ وثالثها ـ أن محبتهم فى قلوبهم من فعلهم . فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى . انتهى . وقد حاول الرازىّ التمويه فى اختيار الأول والجواب عن الثانى . والحق أحق . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا)

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ » أى سهلنا هذا القرآن بلغتك « لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا عقاب الله، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، بالجنة «وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا» أى تخوف بهذا القرآن عذاب الله قومك من بنى قريش. فإنهم أهل لدد وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق (واللدد) شدة الخصومة . والباء فى قوله (بِلِسَانِكَ) بمعنى (على) . أى على لغتك . أو ضمّن (التيسير) معنى (الإنزال) أى يسرنا القرآن، منزلين له بلغتك، ليسهل تبليغه وفهمه وحفظه.

قال الزمخشرىّ :هذه خاتمة السورة ومقطعها . فكأنه قال : بلّغ هذا المنزل، أو بشر به وأنذر ، فإنما أنزلناه الخ ، أى فالفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم .

وقال الرازىّ : بيّن به بهذا ، عظيم موقع هذه السورة ، لما فيها من التوحيد والنبوّة ، والحشر والنشر ، والرد على فرق المضلين المبطلين . وأنه يسّر ذلك لتبشير المتقين وإنذار من خالفهم ، وقد ذكرهم بأبلغ وصف سيئ وهو اللدد . لأن الألد الذى يتمسك بالباطل ويجادل فيه .

ثم إنه تعالى ختم هذه السورة بموعظة بليغة ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ » أى قوم لُدٍّ ، مثل هؤلاء ، إهلاكا عظيما « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ » أى تشعر به وتراه « أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » أى صوتاً خفيًّا. والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم . وكذلك هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك ، إن لم يتداركوا بالتوبة .